بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

« صدق الله العظيم »

[النحل : الآية ٧٦]

جرينا على أن نقول إن الإسلام قاعدة حضارة ، وإن حضارة الإسلام هى التى قامت على أساس من الإسلام .

ولكننا فى هذه الدراسة نقول : إن الإسلام نفسه حضارة ، عقيدته حضارة وشريعته حضارة ، والشريعة تتضمن العبادات ، وقد رأينا الجوانب الحضارية من كل منها ، وتتضمن المعاملات ، وهى القانون الإسلامى الذى يتضمنه القرآن كلام الله وسنة نبيه ، وهى التطبيق والتفصيل ومكارم أخلاقه أو المروءة الإسلامية ، وكل هذه حضارة ، وأنت عندما تقول لا إله إلا الله . . محمد رسول الله ، فأنت بهاتين الشهادتين تدخل عالم حضارة الإسلام الرحيبة

هنا أنت فى جماعة العلم والعمل والإيمان والتعاون على الخير ، أنت فى أمة

أمان الله وضمانه ، وهو جل وعلا يشملك بهديه وحنانه ، ويسير بك فى الطريق القويم وصراطه المستقيم ، وهو طريق إيمان وعمل وفكر ، يصل بك إذا أنت سرت فيه عن فهم ويقين إلى أحسن مما ترجو وأرفع مما يبهرك من المكتشفات والمخترعات ، لأن الذين وصلوا إليها لم يتسلحوا بأكثر من قوة الفكر وعزيمة العمل ، والعلم أساساً هو التفكير السليم الحر الذى يتدرج بصاحبه فى مدارج الكشف عن حقائق الكون خطوة خطوة ، وهذا الكلام قاله رجل من أعلام حضارة الدنيا هو الشيخ الرئيس أبو على بن سينا صاحب الفكر الصافى ، وقد كان ابن سينا معجباً بأفلاطون وطريقته القصصية الجميلة فى سياقه كلام سقراط فى دفاعه عن نفسه عندما اتهمه الأثينيون بإفساد أفكار الشباب وقدموه للمحاكمة ، وكان يعجبه فى كلام سقراط إيمانه بخلود الروح ، وهو كلام ساقه أفلاطون فى محاورة « الفايدون » المشهورة ، فنظر فيها ابن سينا وقال : كل هذا عندنا فى القرآن الكريم ، وسبحانه من جمع لنا الخير كله والحق كله والجمال كله فى آياته البينات ، وما أكثر ما يغيب عن المسلمين من فضائل دينهم العظيم .

ومن أكبر أسباب غيبة الذهن هذه هو النقل والاكتفاء بما قال السابقون ، مع أن القرآن مرسل لنا جميعاً ، وكل منا مطالب بأن يقرأه قراءة تفكير وتدبر ، لينجلى له من أسرار الكتاب العظيم ما غاب عن الآخرين ، ومثال ذلك أننا جميعاً نقول : إن معنى العدل هو أنه ضد الظلم ، مع أن للعدل فى الإسلام معانٍ أخرى واسعة المدى ، إذا نحن جمعناها تبينا أن العدل فى الحقيقة هو الميزان الخلقى للمسلمين ، وانظر إلى الآيات التى توجنا بها هذا الحديث ، وسل نفسك ماذا أراد الله سبحانه بالعدل فى هذه الآية البينة ؟

إن المراد هنا ليس عدل القضاء ، فلا قضية هنا ولا حكم ، وإنما هو سؤال يوجهه الحق سبحانه إلى عقولنا عن رجلين أحدهما عاجز لا يستطيع شيئاً ، والآخر ذكى عامل يأمر بالعدل ، وهو مؤمن يسير على صراط الإيمان ،

ومادامت هنا مقارنة بين الرجلين فلابد أن يكون الثانى منهما خلاف الأول ، ولابد إذن أن يكون الرجل الثانى رجلاً سويا قادراً على إنجاز الأمور يسير فى حياته فى الطريق السليم الذى يرضاه الله ، وهذا هو الرجل العدل كما سنرى فى آيات أخرى قادمة ، ولابد أن نذكر هنا أننا هنا فى سورة النحل ، وهى سورة بديعة فيها أسئلة وأجوبة ومنطق وأخذ ورد وإيقاظ للأذهان إلى حقيقة الإيمان ، فهنا فى هذه السورة يقول الحق سبحانه : ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (الآية ٧٩) فمثل هذه الآية لابد أن يقرأها الإنسان بذهن مفتوح وقلب واع مدرك ، لأننا نرى الطير سابحة فى السماء دون أن نسأل : ما يمسكها فى جو السماء ؟ والجواب هو أنها مسخرات بإرادة الله ، فالطير لا يفكر ولا يعقل ، وإنما هو يعيش بالقوى التى منحه الله إياها ، يفكر ولا يعقل ، وإنما هو يعيش بالقوى التى منحه الله إياها ، فهو سخر لما خلق له ، شأنه فى ذلك شأن الحيوان والسمك والحشرات وكل ما خلق الله ، عدا الإنسان الذى وهبه الله العقل ليستخدمه فى شئون حياته وأولها الإيمان بالله ، لأن الإيمان كما قلنا يحتاج إلى ذكاء ، بل هو فى ذاته دليل ذكاء ولهذا يقول الله جل جلاله فى ختام الآية : ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ ومادامو مؤمنين عن عقل وفكر واقتناع فهم أهل فهم وإدراك ، ولهذا فإن الله يخاطب عقول المؤمنين المدركين بعد ذلك بقوله : **والله جَعَلَ لَكُمْ مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ وبناء البيوت ابتكار إنسانى لم يصل إليه البشر إلا بعد مئات الألوف من السنين فى الظلال والضياع فى البرارى والغابات ، فبنى الإنسان البيوت من الحجر أو الخشب أو الآجر أو اللبن بذكائه الذى يسر له الاهتداء إلى ذلك ، وهنا وجه مقارنة بين الطائر المسخر بأمر الله ، فهو يطير بقوة

من عنـد الله ، والله سبحانـه يمسكـه فى جو السماء ، بينما لم يصل الإنسـان إلى الطيران إلا من حـوالى مائة سنـة مع أنه يحاول ذلك من أيـام الإغريق ، لأنـه لا يصل إلى شىء إلا بعقله ، ولهذا يشير الله بعد ذلـك إلى اهتداء الإنسان إلى عمل الخيام ، وهى البيـوت الخفاف التى يستعملها الإنسان فى سفـره ، والله سبحانه أعطانـا الأصواف والأوبار والأشعار ، فصنعنـا منها الثياب والأثـاث والخيام .

فالـرجل العدل المذكور فى الآيـة : هو الـرجل السوى العاقل الـذى يعتمد على ذكائه فى حياته وحل مشاكله والوصول إلى الصراط المستقيم ، وهو طريق الإيمان بالله ، الذى هو رأس كل فضيلة ، ولهذا يقول الحق سبحانه فى الآية التسعين من نفس سورة النحل :

﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل ١٦/ ٩٠) .

وهى آيـة نقرؤهـا ونسمعها كل يـوم دون أن نفكر فى المراد بـالعدل فيهـا ، وواضح أن المراد هنـا ليس العـدل فى الأحكـام فحسب ، فلسنا كلنـا قضـاة أو حكاماً ، ولكننا كلنا مطالبون بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، فالعدل هنا هو الحظ الأخلاقى السلوكى السليم المطلوب من كل مسلم ، مثله فى ذلك مثل الإحسان ، وهـو التصرف الحسن والاعتدال فى كل شىء يفعلـه الإنسان ، ومن أهم ذلك إيتاء ذى القربى أى رعـاية المستحق للرعايـة منهم ، ولو رعى كل منا ذوى قرباه لاعتدل ميزان المجتمع ، لأن هذا المجتمع مكون من أسر ، والأسرة ـ كما سنرى فى فصل قـادم ـ هى أسـاس المجتمع ، وسلامتهـا أساس سـلامته ، وليس معنى إيتاء ذى القربى رعايتهم بـالمال فحسب ، فليس كل منا غنياً قادراً على تقديم العون المادى ، ولكن هناك العـون العاطفى والعقلى ، ومراعاة الأسرة بضرب المثل الصـالح لأفرادهـا ، ورسـول الله ﷺ مع نبوتـه ورسـالته كـان دائم الإحساس بهاشميته ، يمتدح المحسنين من آل بيته ويضرب لهم المثل الصالح فى

كل موقف . وبعد أن يأمرنا الله بهذه الثلاثة : العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، ينهانا عن ثلاثة أشياء تضر بالمجتمع وتفسده : الفحشاء وهى - كالفاحشة - مؤنث الفاحش وهو القبيح الشنيع من قول أو فعل ، والمنكر هو كل ما ينكره المجتمع من الأقوال والأفعال ، والبغى وهو الظلم والعدوان والتعدى . وهذه أمور ثلاثة تفشت فى مجتمعنا اليوم ، وجعلت حياتنا عسيرة كل العسر ، وكل ما ترى من الشطط فى رفع الأسعار والمتاجرة بأقوات الناس واستغلال حاجتهم إلى المساكن بغى ، ومغالاة الأطباء فى أتعابهم بغى . وليس أحسن من العدل فى التصرف ، فيعمل به الإنسان السليم المستقيم الذى يرضاه الله سبحانه والناس . ولو تعاملنا بعضنا مع بعض على أساس العدل لكنا فى الحال التى نتمناها لأنفسنا وأوطاننا .

وفى سورة المائدة نقرأ :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِى بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الآثِمِينَ ﴾ [٥/ ١٠٦].

فالإشارة هنا إلى الرجال العدول الذين يوثق فى أمانتهم وخلقهم وسريرتهم للشهادة على الوصية ، وهذه الآية هى أصل نظام العدول الذى أصبح مع الزمن جزءاً من تنظيم القضاء فى معظم البلاد الإسلامية . فالناس فى الماضى كان يعرف بعضهم بعضاً ، فكان القاضى يختار - أو يختارون له - رجالاً من أهل الأمانة والصدق للاستعانة بهم فى التحقق مما يدعيه الناس بعضهم على بعض ، وقد كتب الدكتور محمد محمد الأمين الأستاذ بجامعة القاهرة دراسة عظيمة

القيمة عن الشاهد العدل فى القضاء الإسلامى ، بين فيها تطور نظام الشهود العدول واهتمام القضاة به فى بلاد الإسلام ومصر الإسلامية خاصة ، وفى بلاد الأندلس كان العدول أساساً من أسس التنظيم المدنى ، وفى المغرب الذى أخذ الكثير من تنظيمات المدن الأندلسية نجد أن العدول فى كل بلد وقرية أصبحوا من أعمدة المجتمع ، وهم ملأ الناس أى الشخصيات التى تملأ العين والقلب مهابة وشهاداتهم فى المناسبات الاجتماعية كالزواج والصلح بين الناس قاطعة ، ولا يستغنى عن آرائهم القضاة فى نظر القضايا ، وأخلاقهم وثقة الناس فيهم هى التى كانت ترفع أقدارهم إلى مراتب العدول ، والواحد منهم ـ الرجل العدل ـ يرتضى الناس رأيه وشهادته فى كل مجال .

هنا نجد للعدل فى المجتمع الإسلامى معنى آخر غير ما يقابل الظلم ، فالعدل مقياس خلقى ، هو ميزان الناس فى المجتمع ، هو جماع لكمالات الأفراد .

وعندما نقرأ قول الله سبحانه :

﴿ أفَغَير الله أبتغى حَكماً وهو الذى أنزل إليكُم الكِتاب مُفصلاً والّذين آتيناهُمُ الكِتابَ يعلمُون أنه مُنزلٌ من ربك بالحق فلا تكُونَنَّ من الممترينَ . وتَمت كلمة ربك صدْقاً وعَدلاً لا مُبدل لِكلماتِه وهو السميعُ العليمُ﴾ . [الأنعام ٦/ ١١٤ ـ ١١٥] .

نجد للعدل معنى آخر ، فالكلام فى هاتين الآيتين عن صدق القرآن الكريم ، والآية ١١٥ تقول إن كلمة الله تمت صدقاً وعدلاً ، فالمراد بالعدل هنا توضحه بقية الآية : لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم . فنفهم من هذه الجملة أن المراد بالعدل هنا هو الدقة والإحكام والضبط ، وكلمات ربك تم إبلاغها للناس بغاية الصدق والضبط والدقة ولا مبدل لكلمات الله من بعد ،

وذلك كلـه بفضلِ صدق الـرسـول وأمانتـه وضبطـه ، وإذا كان رسـول الله ﷺ قـدوتنا ومثـالنـا فتكون الـدقـة والضبط من أخـلاقيات الإسـلام ، ومن السنن الأساسية التى ينبغى أن نأخذها عن الرسول .

وهذا المعنى للفظ العدل نجده مرة أخرى فى قول الحق سبحانه فى آية الدين فى سورة البقرة ، وهى من آيات الضبط والـدقة والإحكام ، لأن الأمر هنا يتعلق بالأموال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ ﴾ . [البقرة ٢ / ٢٨٢] .

فالكاتب الذى يكتب وثيقة الدين هنـا مجرد كاتب ، والكاتب ليس قاضياً ولا حكما ولا طرفاً فى النزاع ، وإنما هو كاتب مـا يملى عليه بغاية الدقة ، ولهذا يقول الحق سبحـانه : **﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ﴾** فنحن لا نتطلب فى الكاتب معرفة قانونية ، وإنما الدقـة والأمانة فى تسجيل ما يملى عليـه ، وهنا يتضح تماماً أن المراد بالعـدل هنا الأمانـة والدقـة والضبط ، وهى خصال إسلاميـة ينص عليها القـرآن الكريم ، وكان رسول الله ﷺ آية فى الأمانة والدقة والإحكام ، وكان يمتدح الدقة فى العمل والضبط فى الأداء ، وعنـدما أعيـد عمل الصفة فى مـؤخرة المسجـد بعد تعـديل القبلة قـال : « لم يكن يعجبنى ما صنعتموه آنفـاً فانظـروا فى رجل من أصحاب الأعواد يقيم لكم ما تـريدون » ، وأشار عليهم بمولى لإحدى الصحـابيات كان نجاراً ماهراً ، وهو الذى صنع أول منبر خطب عليه رسول الله ﷺ فى المسجد ، وسمع برجل وفد من اليمن إلى المدينـة يحسن غرس النخل ، فذهب ليرى كيف يعمل هذا الـرجل ، وأعجبته دقته وإحكـامه ، حفر الموضع الذى ستغـرس فيه

الفسيلة ورآه يتنخل التراب قبل أن يضعه ، ورآه بعد أن غرس الفسيلة ورواها ترك قدر ربع ذراع من بئر النخلة ، فسأل الرجل فى ذلك ، فقال إنه سيملأ البئر عندما تبرز النبتة من باطن الأرض ، وعنده لذلك تربة مرة تحمى النبتة من الهوام فابتسم وهو يتأمل الرجل يعمل ، وقال : « هذه يد يحبها الله » ، بهذا كله نقول إن الدقة فى العمل وإحكامه سنة ، وكان رسول الله متحريا للدقة التامة فى كل ما يعمل ، فالدقة والضبط جزء من أخلاقيات الإسلام ، ومن بديع أحاديثه قوله : « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طائر أو سبع إلا كان له صدقة » .

ومن محكم كلام الله قوله فى سورة الانفطار :

﴿ يَأَ يُّهَا الإنسان ما غرك بربكَ الكريم . الذِى خلَقك فسَواك فعَدلك . فى أىِّ صورةٍ ما شاء رَكبك ﴾ [٨٢ / ٦ ـ ٨] .

وهذه الآيات تأتى فى سورة الانفطار وبعد قيام الساعة وتفطر السماء وانتثار الكواكب وتفجر البحار وطغيان مياهها على اليابس وتفتح القبور وخروج الناس للحساب بين يدى الرحمن ؛ هنا تعلم نفس الإنسان أثناء الحساب ما قدمت وما أخرت من الأعمال الصالحة وغير الصالحة ، وهنا يكون عتب الخالق سبحانه على الإنسان الذى أحسن خلقه فسواه وعدله فى الصورة التى اختار أن يركبه فيها ، وهى صورة سوية معتدلة ، والوصف هنا لا يقتصر على الجسد ، بل على النفس ، فإن الله سبحانه خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وأراد منه أن يسير فى الطريق المستقيم على أحسن هدى وأقومه ، ولكن الإنسان عصا ربه وخالف أمره ، وأزله الشيطان فقارف ما نهاه الله عنه ، فرده الله سبحانه وتعالى إلى أسفل سافلين أى إلى الأرض ، وتحول كما قلنا من مخلوق فردوسى رفيع إلى حيوان أرضى وفى الفتوحات المكية يقول أمير الصوفية محيى الدين بن عربى : « إن آدم وحواء

عندما أهبطا إلى الأرض حفظ الله عليهما صورتهما الفردوسية السوية ، ولكن المعاصى هى التى أدخلت القبح فى هيئات الناس ظاهراً وباطناً ، فالخطايا هى التى غيرت أشكال الناس فظهر الاعوجاج النفسى والخلقى ، ورأينا من أشكال القبح الخلقى ما نرى » .

ومن بين شيوخ ابن عربى كانت امرأة صالحة تسمى نونا فاطمة أى السيدة فاطمة ، نيفت على الثمانين ووجها أجمل من البدر ، لأن باطنها كان زكياً قوياً ، فظهر ذلك فى خلقتها ، فهى مع شيبها حلوة لا تشبع العين من النظر إليها ، وقد أعاد ابن عربى ذكرها والكلام عليها فى رسالة القدس ، وهى من أجمل ما كتب وأبعده عن الشطحات التى لايحبها بعض الناس .

وقد استعمل الحق سبحانه لفظ العدل فى سياق الكلام عن الزواج وتعدد الزيجات ، لأن الإسلام دخل على العرب ومجتمعهم وبقية المجتمعات الأخرى المعاصرة لعصر النبوة ، كانت لا تضع أى ضوابط للزواج ، فالناس كانوا يتزوجون وينجبون ويطلقون دون ضابط لعدد الزوجات وأسلوب معاملتهن ، إلا الأسرة ، فالمرأة المنحدرة من بيت قوى تحترم وتصان كما نرى فى حالة هند بنت عتبة بن ربيعة وزوج أبى سفيان صخر بن حرب التى فعلت بحمزة الشهيد ما فعلت يوم أحد ، فقد كانت امرأة محترمة تضرب أبا سفيان بقدمها فى صدره ولا يستطيع أن يفعل معها شيئاً ، أما المرأة من البيت الوسط أو الفقير فلم يكن لها من الأمر شىء ، تطلق وتعاد إلى أهلها دون أن يهتم بأمرها أحد ، وإذا مات عنها زوجها استولى أخو زوجها على تركته كلها ، وله الحق فى أن يتزوجها إذا شاء وفى المسيحية كانت المجامع الدينية قد قررت الزوجة الواحدة ، وجعلت الطلاق بيد الكنيسة والقسس ، ولكن المسيحيين كانوا يتزوجون ما شاءوا من النساء دون حرج ويطلقون النساء دون أن يسائلهم أحد ، لأن قرارات المجامع المسكونية (العالمية) لم تكن ملزمة لأحد ، لأن العالم المسيحى ضم أكثر من

كنيسة ، والكنائس فيما بينها متعادية ، حتى القساوسة ورجال الكنيسة كان لهم النساء الكثيرات ، بل إن بعض الأساقفة كان لهم العشرات من النساء والجوارى ، فجاء الإسلام ليدخل النظام على هذه الفوضى ، فحدد عدد من يباح للرجل أن يتزوجهن بأربع فى وقت واحد ، ووضع لذلك من الضوابط ما يجعل الزوجة الواحدة هى الأمثل ، ومثل هذا الشأن الإنسانى العاطفى من شئون الناس لا تضبطه حق الضبط القوانين بل النفوس ، فالرجل قد يتزوج المرأة على رغمها ويعضلها ويذلها ويكسر نفسها بالإهمال وسوء المعاملة ، وهنا يستعمل الله سبحانه ميزان العدل وهو الخط السلوكى الأخلاقى القويم ، فالشريعة تحكم مسائل الزواج والطلاق ، ولكن قانون العدل هو الذى يحقق السعادة وهناءة الحياة الزوجية ، والعدل خط سلوكى نفسى لا يحس به إلا الإنسان وحده ، ولهذا فإن الله يقول مثلاً فى سورة النساء :

﴿ وإن خفتُم ألا تُقسطوا فى اليَتامَى فانكِحُوا ماطَاب لَكُم من النساءِ مثنىَ وثُلاثَ ورُباع فإن خِفتم ألا تعدِلُوا فواحِدةً أو ما ملكت أيمانُكم ذلِك أدنىَ ألا تعولُوا . وَآتوا النِساءَ صدقاتِهنَّ نِحْلة فإن طِبن لكُم عن شىءٍ مِنه نفساً فكُلُوه هنيئاً مرِيئًا ﴾ . [النساء ٤/ ٣ ـ ٤].

فهنا لأن مسائل الزواج والطلاق مسائل قلوب تحكمها ـ إلى حد بعيد ـ العواطف والميول والأذواق ، يستعمل القرآن الكريم لفظ العدل ، ولأنه ميزان خلقى داخلى فإن الانسان فى مسائل بيته يعتمد على الأحاسيس قبل القانون والحقوق والواجبات . فهنا يدخل التوافق والنفور والحب والكراهية ، ومن ثم فالمسألة دقيقة ، ولهذا يقول سبحانه : فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة . والعدل بين النساء ـ فى الزواج ـ مستحيل والله سبحانه وتعالى يقول فى نفس سورة النساء : **﴿ وَلَن تسَتطِيعُواْ أن تَعدِلُوا بَيْنَ النِسَاء وَلَو حَرصتُم فَلاَ**

تميلوا كُلّ الميلِ فَتَذَرُوها كالمعلقَةِ وإن تصلحُوا وتَتقُوا فَإنّ الله كانَ غَفوراً رحيماً ﴾ [النساء ٤ / ١٢٩] .

وسبب استحالة العدل بين النساء هنا هو الطبيعة الإنسانية نفسها ، فإن الزوجة - كل زوجة - تريد كل زوجها لنفسها وأولادها ، وهى لا ترضى أن يعطى شيئاً من نفسه لأى إنسان آخر ولو كانت أمه أو أخواته ، والمرأة بطبيعتها تعطى لنفسها ومحبتها كلها لرجل واحد ، وهى تريد من الرجل المثل ، وعلى كثرة ما سمعنا وعاينا لم نر ولم نسمع عن رجل تزوج اثنتين أو ثلاثاً وكان سعيداً مهما فعل لأن الزواج صلة إنسانية خاصة جداً بين الزوجين ، فيها حب وأنس وثقة إلى جانب مسائل الاستقلال بالمسكن والأولاد ، وهذه كلها مسائل لا يمكن أن تتقاسم بين رجل وامرأتين أو ثلاث نساء ، هذا إلى جانب الأولاد فى الزواج المتعدد ، فهم لا يكونون إخوة حقيقيين قط ، بل إنهم يشبون منذ البداية أعداء

والرجل الذى يشط به عقله ويتزوج امرأة ثانية ويسكنها مع الأولى أو فى بيت آخر لا يلبث أن يعلم أنه فقد السعادة الزوجية وسكون البيت وراحته ، فإن الزوجة الأولى - حتى فى الحالات التى توافق فيها على زواج رجلها بامرأة أخرى - تفقد الثقة والأمان ومعهما الحب ، وتتحول إلى عدو كسير الجناح يصمت لأنه يخاف أن يتكلم . ولكنه يتكلم فى صمت ، ويتحرك فى سكون ويبتسم وهو يبكى ، معظم مآسى البيوت الحاكمة فى تاريخنا آتية من تعدد النساء فى قصور الحكام ، ولكل امرأة أولاد ومخاوف ومطامع ولها كذلك أنصارها ، والقصور تتحول إلى ساحات قتال وتدمير ، وصاحب السلطان الذى يعيش فى قصر كأنه مدينة لا يجد غرفة واحدة يستطيع أن ينام فيها هادىء البال مطمئن النفس ، ولا يتصورنَّ أحد أن الخلاف بين الأمين والمأمون مثلاً نشأ عن أن السيدة زبيدة أم الأمين عربية والخيزران أم المأمون فارسية ، بل إنه نشأ من الزوجتين ، فإن السيدة زبيدة كانت أمرأة عاقلة كريمة مؤمنة أنفقت من مالها الكثير جدًا فى سبيل الخير

وهى وحدها ومن مالها قامت بتعمير طريق الحج من العراق إلى الحجاز ، ولكنها قبل كل شىء امرأة تريد كل زوجها لنفسها وأولادها ، وهذه هى طبيعة البشر لا طبيعة زبيدة وحدها ، وابنها الأمين لم يكن منذ البداية سيئاً ولا غبياً ولا ناقص العقل والخلق ، ولكن المأمون ابن الخيزران خلق له مشكلة تجاوزت طاقاته ، فهنا الخلافة والسلطان ومن خلف الأمين ناس لهم مصالح ومطامع ، وكذلك الأمر مع المأمون . ثم إن المأمون كان يكبر الأمين بستة شهور فحسب . فهما صنوان فى السن وعديلان فى الحق ، ولم يكن من الممكن أن يكون بينهما هذا الفرق القليل فى السن لو أنهما كانا ولدى زوجة واحدة ، ففى هذه الحالة يكون واضحاً جدًا ، ويكون صاحب الحق فى ولاية العهد واضحاً جداً أيضاً ، والمأساة كلها ظهرت فى أيام الرشيد أبيهما ، فهذا الرجل الشهم الذكى المثقف ثقافة واسعة كان عاطفياً رقيق القلب سريع الدمعة ، وكان فى حاجة إلى زوجة واحدة تحبه وترعاه لأن صحته كانت ضعيفة فكان من أوائل الثلاثينات من عمره يشكو من متاعب فى البطن والأمعاء ، ثم أصابه شىء فى القلب ، وأذكر أننى قرأت فى كتاب الأغانى ــ وربما فى كتاب الكامل لأبى العباس المبرد ــ أنه جلس تحت شجرة ليستريح وهو فى الطريق إلى طوس وكان متأخراً عن كتلة الجيش ومعه واحد من نداماه وأهل صفوته من رجال الفكر ، فشكا له همومه ومتاعبه وكشف عن بطنه ليرى مابه ، والرجل الذى حكى الحكاية يتعجب من أن هذا القسط الضئيل من السعادة والأمان يكون نصيب أكبر ملوك الدنيا فى وقته ، وغاب عنه أن المأساة مأساة الزوجتين ! ولو كانت للرشيد امرأة واحدة لما اضطر إلى أن يشكو آلامه لهذا النديم تحت شجرة فى الطريق إلى طوس ، لأن مكان هذه الشكوى يكون فى البيت مع الزوجة المحبة ، ولكن هارون الرشيد لم يكن يجد السعادة فى قصره ولا فى بغداد كلها ، ولهذا كان لا يطمئن إلى العيش فيها ، وكان معظم الوقت خارجها ، وهذا هو تفسير ما نقوله من أنه كان يحج سنة ويغزو أخرى .

وهذه المأساة يعرفها كل من تزوج بأكثر من واحدة باستثناء حالات الضرورة كالعقم أو المرض الوبيل وما إلى ذلك . . والله سبحانه أباح التعدد ولكنه قيده بالعدل ، وهو الميزان الخلقى الداخلى الذى لابد أن يستخدمه المسلم فى تقدير أعماله قبل القيام بها أو قبل الحكم على الأشياء .

والعدل ضد الهوى . ومعظم المصائب فى تصرفات الإنسان تأتى من الهوى ، ولهذا أعطانا الله سبحانه ميزان العدل ، وجعله علاجاً لأخطار الهوى ، واقرأ هنا قول البارىء سبحانه :

﴿ يَـأَيُّهَا الذين آمنُوا كونُوا قوامينَ بالقسْطِ شُهداءَ لله ولو على أنفُسكم أو الوالديْن والأقربين إن يكُن غنياً أو فقيراً فالله أولَى بهما فَلا تَتَبعوا الهَوى أن تعدلوا وإن تلوُوا أو تُعرضوا فإن الله كان بما تَعملوُنَ خبيراً﴾ [النساء ٤/ ١٣٥] .

فهنا يضع الله العدل أمام الهوى ليحمينا من شرور الهوى ، وهو آفة حياتنا وتاريخنا الكبرى ، وما دخل الهوى شيئاً إلا أفسده وضيع جماله ، وجعله نقمة بعد أن كان نعمة ، وفى الغرب ابتكر الناس نظم المحلفين ليأمنوا الهوى فى الأحكام ، أما فى الإسلام فقد منحنا الحق سبحانه العدل وهو الفيصل الذى يفرق بين الصواب والخطأ ، بين ماهو صالح وماهو ضار فى حياتنا الخاصة والعامة . وقد كان العدل مبدأ من مبادىء المعتزلة ولكنهم قصروه على عدل الله سبحانه ، وهو أمر لاشك فيه ، ولا مجال للمناقشة فيه ، وكان جديراً بهم أن يوجهوا أذهانهم إلى العدل الإنسانى الذى يحمى الإنسان من الهوى ، والمعتزلة أنفسهم لم يكونوا أهل عدل بل كانوا أهل هوى ، والهوى ضيعهم .

***